حكم الشريعة في القبور المبنية في كتب العمارة الاسلامية

علي عثمان الناجم
الدراسات العليا
جامعة الملك فيصل الدمام

المستخلص : إن مايميز الدين الإسلامي شموليته للحياة اجمعها فليس هناك فصل بين العلم والدين وهذا يستلزم ان يشتمل اي علم على اصول الدين أو لايعارضها ، فكيف اذا كان يدور حول اهم اصول الدين وهو التوحيد .فلاشك ان تضمنه لهذا الاصل من اوجب الواجبات ومن اولى الاولويات أو لايعارضه على اقل الاعتبارات وهذا البحث دراسة تلقي الضوء على بعض أهم كتب العمارة التي تعرضت لتاريخ العمارة الاسلامية ووقفت على الاثار المعمارية وشملت من ضمنها البناء على القبور من اضرحة وغيرها وابرازها بالشرح والتفصيل على انها من اهم الاثار الاسلامية ، وبالتالي نسبتها للاسلام فضلاً عن تمجيد ها واطرائها باسمى الاوصاف . ومن خلال العرض على الكتاب والسنة يتضح ان هذا مخالف للنصوص الصريحة والادلة المتواترة على تحريم البناء على القبور . وهذا مما يدعو الى تقييم و تقويم كتب العمارة التي تعني بتاريخ العمارة الاسلامية من الناحية الشرعية لتصحيح مثل هذا الخطأ الكبير مما يتطلب خطوات مستقبلية مهمة توضحها الخلاصة والتوصيات .

١- المقدمة

الحمد لله الذي جعل هذه البلاد منارة تشع بنور التوحيد بين كل البلاد وبعد فهذا بحث في نقد لبعض الكتب التي تعرضت لتاريخ العمارة الإسلامية عنوانه « حكم الشريعة في القبور المبنية في كتب العمارة الاسلامية» النقد ينصب على جانب واحد فقط من جوانب كتابة تاريخ العمارة الإسلامية وهو حين تقف هذه الكتب على ماخلفه هذا التاريخ من تراث فتنسب بناء القبور والاضرحة وماشابهها إلى التراث الاسلامي وبالتالي نسبتها للإسلام ، فضلاً عن تمجيدها واطرائها باسمى الالقاب والاوصاف مع الشرح والتقصي والتفصيل باسهاب مع أن هذا مخالف لما جاء في الشريعة الإسلامية . وإن الغاية المرجوه والهدف المقصود من وراء هذا البحث هو توضيح ضرورة التأصيل الشرعي في علم العمارة على العموم وتاريخ العمارة الإسلامية على وجه الخصوص ولهذا فإن هذا البحث سيستعرض في جزئه الأول بعض من الكتب الواسعة الانتشار والمراجع المهمة في غالب الكليات المعمارية في الداخل والخارج وغيرها من الكتب والتي تعرضت لتاريخ العمارة الإسلامية للوقوف على الوضع الذي يعيشه نقل التاريخ للعمارة الاسلامية سواء بين المسلمين أو غير المسلمين وادراك مدى الاسر الذي يعيشه في قفص فكرة البناء على القبور والذي يظهر في التفصيل والشرح واضفاء عبارات المديح والثناء والتمجيد عليها . وأما جزء البحث الثاني فيقف على النصوص الصريحة والادلة المتواترة الواضحة بحجيتها الداحضة التي لاتدع مجالاً للشك أو التردد على تحريم البناء على هذه القبور من أضرحة وترب ومشاهد وماشابهها و براءة الاسلام منها ، ويوضح أيضاً إنها منكر عظيم في المجتمعات الإسلامية وعنصر ممقوت ممنوع في البيئات العمرانية الإسلامية يستلزم ازالتها منها. ثم ينتهي البحث بخلاصة نتائج البحث مع توصيات هامة عاجلة للباحث والطالب والاستاذ في المجال العلمي والمعماري بشكل أخص . نسأل الله أن ينفع بها .

٢- اهم كتب تاريخ العمارة الإسلامية التي أبرزت عمارة القبور والأضرحة :

يستعرض هذا الجزء مااورده بعض المتخصصين في العمارة الإسلامية عن ابنية القبور ومأأضفواعليها من صفة الإسلامية ، ومااحاطوها من تفصيل وشرح باسهاب فضلاً عن المدح والتمجيد . لكن ينبغي التنبيه أن الفئة المسلمة من مؤرخي العمارة الإسلامية ممن أوردت هذه الابنية يغلب عليها النية الحسنة ولكنها ضلت الطريق والله اعلم فيقول احدهم: «واسهبت بعض الشيء في صفة العروبة والإسلام بإبراز جانب من تراث حضارة العرب والمسلمين»(١)

وأخر يقول : « ليس من المرغوب طبقاً للشريعة الإسلامية البناء على القبور لتعارض ذلك مع العديد من الاحاديث النبوية الشريفة » (٢)

وبعد فهذه بعض الامثلة التي ذكرت الابنية القبورية من الكتب التي تناولت تاريخ العمارة الإسلامية .

٢ -١: كتاب Islamic Architecture لمؤلفه John D. Hoag

يتحدث المؤلف عن تعريف العمارة الإسلامية بإننا إذا عرفنا عمارة الإسلام بأنها البناء الذي شيده اتباع النبي صلى الله عليه وسلم بين القرن السابع والثامن عشر أو التاسع عشر وهناك بعض الحالات بعد هذا التاريخ حيث وجد الدين ، باختلاف مايسمى به هذا البناء سواء العمارة الإسلامية أو العمارة المحمدية أو عمارة المسلمين حين ازدهارها - فإننا نشعر من الوهلة الأولى بالتنوع والاختلاف فالمواد تختلف من الحجر الى الطوب (٣) .

فهل العمارة التي سيتحدث عنها وننتقل عبر تاريخها ضمن ماجاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعمل بها صحابته رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان من السلف الصالح ؟ وهل هي عمارة إسلامية قائمة على تعاليمه لانتسابها اليه ولاتخرج عن مضامين هذه التعاليم : وهل هي عمارة مرتبطه بالمسلمين وبعقيدتهم وبما جاءهم من النبي عليه الصلاة والسلام ومن الأمثلة التي استعرضها مايلي :-

١- في العهد الفاطمي يعطي مثالاً للعمارة الاسلامية القديمة في مصر، مثل مسجد الجيوشي فهو عبارة عن مشهد مصغر (٤)

٢- وفي العهد الايوبي والمملوكي يعطى مثال آخراً للعمارة الاسلامية القديمة المتأخرة في مصر ، مثل ضريح السلطان قلوون ومدرسته ، "بأن ضريحه العظيم أو الفخم ، وبالمثل بنفس القمة في الجمال يمكن أن يقال ايضاً في مدرسته والمستشفى جميعها ، تكاد تكون مدمرة " (٥)

٣- وفي العمارة الاسلامية المبكرة في ايران يمثل بضريح اسماعيل بأن الجمال الجدير بالذكر لضريح اسماعيل يكمن في استثماره ، سواء في الداخل أو الخارج للامكانات الزخرفية .(٦)

٤ - وبالمثل في العمارة الإسلامية القديمة المتأخرة في ايران يتحدث ايضاً عن اضرحة وقبور مع الثناء الزائد مثلاً يعطي مثالاً لضريح الجيتو بأن السجلات تذكر ان هذا المبنى العظيم .. (٧)

ومن هذا يتبين المدح الذي اضفى على هذه الاضرحة جمالاً وروعة بل واعتبر من الانجازات والمعالم الهامة والعظيمة والمفعمة بالجمال في تاريخ العمارة الإسلامية وانتسبت له ايضاً فلم تعتبر عمارة إسلامية فقط بل ومن الانجازات الهامة والعظيمة له هكذا يصور لنا هذا الكتاب الابنية القبورية أو الأضرحة فهل هذا حق ؟ أما المثال الثاني :

٢-٢ : كتاب Architectrure Of the IslamicWorld لمحرره G. Michell

جاء في تصدير الكتاب ان المباني الإسلامية تعبر عن الاعتقادات الدينية وتعبر ايضاً عن التركيبه الإجتماعية والاقتصادية والإحساس البصري لعادة موحدة (٨) فهل المباني الاسلامية المذكورة في الكتاب كلها اسلامية وتعبر عن الإسلام أو حتى شئ من تعاليمه ومما يحث عليه ؟ أو على أقل تقدير لاينكرها ولايحاربها ؟

ومن الامثلة التي أوردها الكتاب عن هذه الاضرحة :

١- مسجد الضريح أو المسجد التذكاري وغرفة أو مصلى الدفن وأن وجود قبور العائلة الحاكمة هي علامة التقدير الكبير لتحصيل العلم في المجتمع الإسلامي . (٩) فهل هذه حقاً علامة ودليل تقدير في المجتمع الإسلامي أم أنها إفتراء على الإسلام .

٢- ومثال آخر هو تاج محل في اجرا عندما يحلل بدقة وبإهتمام فإنه يريك تناغماً دقيقاً جداً في تنظيمه (١٠) ويعبر عن ما بلغته العمارة المغولية (١١)

٣- وفي معالم العمارة الإسلامية يسرد مثالاً لمدرسة قلوون إذا يعتبر هذا المعلم أعظم مشروع يدل على الطموح في القاهرة بني بواسطة قلوون فأما المستشفى والمدرسة والمدفن فقد شيدت بنجاح (١٢)

٤- مبنى ضريح جونباد قابوس فهذا واحد من المباني الأولى ذات المعالم الرنانة (١٣)

٥- ويتكلم عن كثير من الاضرحة كمعالم للعمارة الإسلامية على الصفحات من ٢٢٥ الى ٢٦٧ كمدرسة وضريح محمد الناصر . الى غير ذلك من الامثلة المصاحبة بالثناء والإطراء غير المحدود لمثل هذه القبور والاضرحة .

٢-٣ كتاب Great Architecture of the World لمحرره J.Norwich .

وكما سبق يوضح المؤلف في الجزء الخاص بالاسلام من أن بناء الاضرحه (والتي غالباً ماتكون بقبه مدهشه على الضريح)، يعتبر مثال آخر للتطوير الذي تزامن مع ظهور المدرسة . هذه الاضرحة غالباً ماتشترك مع المدرسة في مجمع معماري مستقل ومهيب (١٤) ثم يستعرض في الكتاب بعض المعالم المهمة المعمارية الإسلامية في مختلف البلاد الإسلامية مؤكداً ان الابنية على القبور من اضرحه وغيرها مباني اسلامية . فمثلاً في ايران يرى من ناحية العمارة فضلاً عن الزخرفة ، فإن المبنى الاسلامي في ايران يتميز بأبراج أو مباني الاضرحه . ويأتي بأمثلة منها ضريح تربو وضريح اسماعيل (١٥)

فهل الإسلام يقر مثل هذه الأبنية القبورية فيعتبرها مباني إسلامية ؟

٢-٤ كتاب Architecture Through the Ages لمؤلفه Talbot Hamilin

في هذا الكتاب يربط المؤلف الدين والعمارة بالنبي صلى الله عليه وسلم فيرى ان المشكلة الرئيسية في عمارة المسلمين كانت تصميم المسجد ، ولنفهم ذلك يجب ان نعرف شيئاً عن الطبيعة الدينية للمحمديه (١٦)

وأن هذا الابداع واخراج وتنفيذ الاشكال الهندسية له التأثير الكثير على الشكل المطور النهائي للنمط أو الطراز المحمدي (١٧) و يرى أن عمل المسلمين في الهند يعكس القدرة المذهلة للثقافة الاسلامية لاستيعاب واستخدام الاشكال المحلية الموجودة في المناطق المستولى عليها . وبالطبع فإن العمارة المحمدية في الهند هيمنت تحت التأثير الفارسي (١٨) ولايخفي اعجابه الشديد ببعض الاضرحة فيؤكد ان قمة العمل المعماري وذروته هما مبنيان في العمارة المغولية في الهند وكلاهما ضريحان فأما الأول فضريح محمد طه في بجابور / والثاني - طبعا - تاج محل الذي لعله اروع مبنى ضريحي في العالم (١٩) فهل هذه الابراج القبورية لها من الابداع والروعة كل هذا وتنسب الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم . وبعد هذا السرد لأهم كتب التاريخ الانجليزية التي ناقشت تاريخ العمارة الإسلامية ولاحظنا فيها بلا شك اهتمامها بالاضرحة وابنيتها ومااضفت عليها من صفات الابداع والجمال حتى بلغت بها ذروة العمارة الإسلامية و الأهم من ذلك أنها قد نسبتها الى الدين الإسلامي مرة ، ومرة الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن السؤال الذي قد يتبادر الى الذهن أن هذه الآراء متعلقة بأناس ليسوا مسلمين ولكن ماذا عن المنتسبين إلى الاسلام ماذا يقولون ؟ هذا ماسيتضح في الأمثلة التالية :-

٢- ٥ : كتاب العمارة في الحضارة الإسلامية :لمؤلفه عبد القادر الريحاوي :

يقول عن العمارة التي سيتحدث عنها :« فكلما أنتجه شعب أو اقليم مسلم عربياً كان أو أعجمياً انما ينتمي الى حضارة الإسلام ، بالرغم مما نجده من اختلافات ، وإن كلمة إسلام إنما نعني بمعناها الواسع الدين والثقافة واسلوب الحياة السياسية وكل مايتصل بحضارة الانسان ... ومن هذا المنطلق سنعالج في هذا الكتاب العمارة الإسلامية ، فهي عمل حضاري متميز عن عمارة الحضارات الأخرى ، عمارة لها شخصيتها وخصائصها ومميزاتها لانها تطبيق لتعاليم الإسلام » (٢٠) ومن أمثلة هذه العمارة في العهد العباسي « تربة السامانية وتربة قابوس وتربة .....» (٢١) ثم يتحدث عن ترب أخرى . الى أن يقول « وتخلف عن هذا العهد(السلجوقي) مجموعه هامه من الأضرحه الخاصة بالسلاطين والشخصيات البارزة » (٢٢) ويسرد مجموعة في عدة صفحات (٢٣) ثم في عمائر

العهد السلجوقي في الشام يقول : « ويتجلى فن العمارة بشكل خاص في قبة المدفن النادر المثال حيث توجد تربة السلطان نور الدين التي تضم ضريحه في المدرسة النورية » (٢٤) وهكذا يكمل في بقية كتابه ويسرد أهم الأضرحه والترب في كل من العصور ويزينها بأوصاف الجمال والابداع كأن يقول في ضريح تاج محل « يعتبر هذا المبنى الاسلامي من روائع العمارة الإسلامية ، حيث تبلغ فنون العمارة وتنظيم الحدائق به الذروة » (٢٥) فيكاد المسلمون يفوقون اقرانهم من غير المسلمين في اطلاق الاوصاف وفي الشرح والتفصيل لمثل هذه القبور والأضرحه كما في هذا المثال والأمثلة الآتية .

٢-٦ : كتاب العمارة العربية الإسلامية : ماضيها وحاضرها ومستقبلها لمؤلفه فريد شافعي

وأما في هذا الكتاب فيصف مؤلفه بعض الأبنية القبورية فيقول مثلاً « ثم انبثق عن العمارة الاسلامية في فارس والعراق في العصر التيموري والصفوي مدرسة في الهند منذ تأسيس دولة الاباطرة المغل . وازدهرت تلك المدرسة ازدهاراً كبيراً في عصر الامبراطور اكبر وخليفته شاه جيهان صاحب اشهر عمائرها وهو ضريح زوجته تاج محل في اجرا » (٢٦) والذي يعد « من اشهر ماشيد في الفترة الزاهرة من العصر الهندي المغولي »(٢٧) ويقول ايضاً « ونكتفي بان نشير الى بعض النواحي البارزة في تاريخ العمارة في عصر المماليك .. ومن أهم امثلته جامع ومدرسة السلطان حسن.. ويعد الجامع اجل العمائر الاسلامية في العالم كله وذلك لما يتميز به من خصائص معمارية تجعله مضرب الامثال في العظمة والضخامة مع الهيبة والوقار والاعتماد على جمال النسب المعمارية » (٢٨) وهذا الضريح توقف عنده الكثير فوصفه مثلاً مؤلف كتاب Islamic Architecture بأنه مجمع عظيم يضم مدرسة وضريح السلطان حسن ويعد اكثر النصب جدارة بالملاحظة في مصر(٢٩) ويقول «بقى عدد من تلك الاضرحة والمشاهد ليوضح لنا حلقات التطور التي تعرضت لها تقاليد وعناصر معمارية في تلك الفترة ونضرب مثلاً ضريح السيدة رقية»(٣٠)فهل هكذا ينظر الإسلام الى هذه الابنية وهل لها عنده هذه المكانة الرفيعة من العظمة والفخامة والهيبة والوقار

٢-٧ : التراث المعماري الاسلامي في مصر لمؤلفه صالح لمعي مصطفى :

قال مؤلفه « يهدف هذا الكتاب نحو دراسة معمارية تشرح تطور العناصر المعمارية الإسلامية والانشائية والزخرفية التي تكونت منها العمارة الإسلامية في مصر مع تحليل القيم المعمارية التي يحتويها هذا التراث الخالد ثم بيان ماتاثرت به العمارة في مصر من مؤثرات » (٣١) فما هي هذه العمارة الاسلامية وهذا التراث الخالد ؟ ثم يبدأ بذكر اهم الاثار والمباني في كل عهد ففي عهد الاخشيديين « ولم يبق من آثار هذه الدولة سوى مشهد آل طباطبا »(٣٢) وفي حكم الفاطميين و « مسجد (مشهد) الجيوشي .. وقد ظهر نوع من المنشأت الريفية لم يشاهد بعد ذلك في العصور الاخرى وهو المشهد »(٣٣) . وفي العهد المملوكي الجركسي يقول : « ويعتبر هذا العصر بحق العصر الذهبي للعمارة الإسلامية في مصر » ومن أهم المعالم المعمارية في هذا العصرمدرسةوخانقاهبرقوقبالنحاسين »(٣٤)(مجمع المدرسة ويتكون هذا المجمع من مدرسة ومسجد وتربة ومئذنة ويضم الخانقاه مسجداً وتربة)(٣٥) . وكما سبق لايزال التعاطف مع هذه المباني القبورية مستمر فهي معالم ومباني دينية وتراث للأمة الاسلامية وفيها قيم ومبادئ يمكن استخلاصها لإعادة استخدامها في اسلوب معماري جديد . ولما لا فهي عنده في عهد من العهود كانت عاملاً جعلت ذلك العهد أو العصر « بحق العصر الذهبي للعمارة الإسلامية » فهل هي حقاً كذلك ؟ وتكاد اكثر الكتب الاسلامية التي تدرس العمارة الاسلامية من خلال عصور الحكم الاسلامي وتتبع المباني فيه ، ان تشمل الاضرحة والقبور كجزء من المباني والعمارة الإسلامية وكجزء من التراث الاسلامي ، ولذا لم يكن غريباً أن يسهب في ذلك غير المسلمين . فما حكم الاسلام في هذه الابنية وهل هي من تراثه وعمارته ؟

لقد وضح من استعراض الامثلة السابقة : ومن كتب عالية القوم في مجال العمارة الاسلامية مسلمين وغيرهم ان

بعضهم ، بل القسم الذي يضم المسلمين منهم ، يصر ويؤكد ان نسميها ، أي هذه العمارة التي من ضمنها هذه القبور وماشابهها من أضرحة وترب ومشاهد ، بالعمارة الإسلامية فيقول : « وهكذا ينادي بعض المستشرقين ... (الى ان يقول) ماقصد بالفن التركي إلا الفنون الإسلامية من عمارة وغيرها » (٣٦) ويقول : «وكان الاولى ان يطلق عليه الفن الإسلامي في العهد العثماني أو في العهد السلجوقي وهكذا نطلق على الفنون الاخرى فنقول : العمارة الاسلامية في مصر ، والعمارة الإسلامية في إيران تماماً كما نقول العمارة الإسلامية في العهد العباسي والعهد المملوكي .. الخ »(٣٧) فهل هذه الابنية القبورية تستحق كل هذا المدح والإعجاب والانبهار ، و الاهم من ذلك كله هل تنسب الى الإسلام ؟ وهل يبقى ويحافظ عليها أم تزال وتهدم من مواقعها وتطهر منها ؟ ماذا قال الله وقال رسوله صلى الله عليه وسلم ؟ وماذا كان منهج السلف الصالح في معاملة مثل هذه الأبنية ؟ وهذا ماسيعالجه بقية البحث .

٣- الحكم الشرعي في الابنية على القبور :

كل جرح دون جرح الدين يهون . فإذا كان ذلك الجرح في الدين فتلك قاصمة الظهر والمصيبة العظمى والفاجعة المهولة . وهل هناك اعظم من الشرك فكل شيء دون الدين يهون ، المال والدنيا بما جاء فيها . حتى النفس .

فقد روى الأجري في باب السمع والطاعة لمن ولى امر المسلمين والصبر عليهم وان جاروا وترك الخروج عليهم ماقاموا الصلاة « عن سويد بن غفلة قال : قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعلك ان تخلف بعدي فأطع الإمام وان كان عبداً حبشياً وان ضربك فاصبر وان دعاك الى امر منقصة في دينك فقل :سمعا وطاعة ، دمي دون ديني (٣٨) والتوحيد هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره ، وهو أول دعوة الرسل وآخرها وهو حقيقة دين الإسلام الذي لايقبل الله من احد سواه وانه لامقصود به في حياة الدنيا إلا توحيد الله تعالى ومعرفته وخدمته والاخلاص له والاستلذاذ بذكره . فإذا حصل هذا للعبد فهو الحي بل قد حصلت له الحياة الطيبة في الدارين فلهذا خلق الانس والجن فإن الله تعالى اخبر انه ماخلق الانس والجن إلا لعبادته فهذه هي الحكمة في خلقهم . فإذا علمنا هذا كله ادركنا اهمية التوحيد وفي نفس الوقت ادركنا خطورة ضده وهو الشرك بالله تعالى والفتنه به . وهل هناك أعظم خطراً من عدم مغفرته قال تعالى: ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ قال ابن كثير « اخبر تعالى انه لايغفر ان يشرك به . اي لايغفر لعبد لقيه وهو مشرك مادون ذلك أي من الذنوب لمن يشاء من عباده (قال صاحب تيسير العزيز الحميد) فتبين بهذا ان الشرك اعظم الذنوب » (٣٩) ولهذا رتب الله عليه من عقوبات الدنيا والآخرة مالم يرتبه على ذنب سواه من اباحة دماء اهله واموالهم وسبي نسائهم واولادهم وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه ولذا شرع الجهاد مع مافيه من ازهاق النفوس وقتال الرجال ، فإن الشرك بالله والصد عن سبيله ابلغ واشد واعظم واطم من القتل ولهذا قال تعالى : ﴿ الفتنة أشد من القتل ﴾ (٤٠) وإذا كان للمعاصي من الأثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة مالايعلمه إلا الله ومنها انها تزيل النعم وتحل النقم فمازالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ، ولاحلت نقمة إلا بذنب (٤١)فكيف بالشرك الذي هو اعظم المعاصي ؟ فكم من النعم ستزول وكم من النقم ستحل ؟ فأي صلاح يرجى في الشرك بالله وأي خير في شيء يحل به غضب الله عز وجل ؟ فيجب الخوف والحذر من الوقوع فيه وسد الذرائع الموصلة اليه وتجنب وسائله . ولهذا بوب الامام المجدد محمد بن عبد الوهاب في مصنفه كتاب التوحيد «باب من الخوف من الشرك » (٤٢)فنبه المصنف بهذه الترجمة على انه ينبغي للمؤمن ان يخاف منه ويحذره ويعرف اسبابه ومبادئه وانواعه لئلا يقع فيه (٤٣) .

فينبغي ان تسد جميع منافذ الشرك ووسائله ، سداً للذريعة . جاء في كتاب التوحيد للامام محمد بن عبد الوهاب «باب ماجاء في حماية المصطفى جناب التوحيد وسده كل طريق الى الشرك » (٤٤) واضافة الى ذلك « لقد بالغ النبي صلى الله عليه وسلم (في سد ابواب الشرك) وحذر وانذر وبدأ وأعاد وخص وعَمّ في حماية الحنيفية السمحة التي بعثه الله بها ، فهي حنيفية في التوحيد ، سمحه في العمل ، كما قال بعض العلماء هي اشد الشرائع في التوحيد والأبعد عن الشرك واسمح الشرائع في العمل » (٤٥) ونتيجة لذلك فمن علم خطر الشرك وقبحه ومساوئه وعلم إضافة الى ذلك ، فضل التوحيد وقدره فينبغي ان لايقتصر على نفسه بل يدع الى الله ويبين ذلك ويوضحه .

قال شارح كتاب التوحيد في تيسير العزيز الحميد « فلا ينبغي لمن عرف ذلك ان يقتصر على نفسه كما يظن الجهال .. بل يدعوا الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن كما كان ذلك شأن المرسلين » (٤٦)

اذا لابد من الخوف من الشرك واخذ الحذر منه وسد جميع الابواب الموصله والداعية اليه سداً للذريعة . واكثر من ذلك أن لايقتصر الانسان على نفسه اذا علم ذلك ، بل يدعوا الى الله وينبه الى خطر الشرك ويحذر منه . فكيف اذا بمن يحسن وسائل الشرك ويفصل ويشرح حتى يسهب كثيراً فيها بل يؤلف الكتب تلو الكتب فيها ؟ وبعد هذا السرد عن أهمية التوحيد وخطورة الشرك فليعلم إن اشر الفتن واعظم الشرك هي فتنة عبادة القبور التي ادت بكثير من الناس الى الشرك الاكبر . كما قال ابن القيم : « واعظم الفتن بهذه الانصاب فتنة انصاب القبور وهي اصل فتنة عبادة الاصنام كما قال السلف والصحابة والتابعين (٤٧) وقال : « ومن اعظم كيد الشيطان ان ينصب لاهل الشرك قبر يعظمه الناس ثم يجعله وثناً يعبد» (٤٨). فإذا كان هذا شر عبادة القبور من انها اصل عبادة الاصنام وقد علمنا قدر الشرك ، فما حكم البناء عليها ؟ قال تعالى في سورة النساء ﴿ ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ﴾ آية ١٧١. وورد في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها «لمانزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصه له على وجه فإذا اغتم بها كشفها فقال وهو كذلك لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد يحذر ماصنعوا – ولولا ذلك ابرز قبره ، غير انه خشي ان يتخذ مسجداً» وورد ايضاً في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ان ام مسلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة ومافيها من الصور فقال أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنو على قبره مسجداً وصوروا تلك الصورة – أولئك شرار الخلق عند الله » . قال شيخ الإسلام فهؤلاء « جمعوا بين الفتنتين فتنة القبور وفتنة التماثيل » يعني ان الذين بنوا هذه الكنيسة جمعوا فيها بين فتنتين ، ضل بها كثيرمن الخلق،الاولى فتنة القبور لانهم افتتنوا بقبور الصالحين وعظموها تعظيماً فآل بهم الى الشرك وهي اعظم الفتن (٤٩). وقال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى « وهذه العلة هي التي لإجلها نهى الشارع عن إتخاذ المساجد على القبور وهي التي أوقعت كثير من الأمم في الشرك الاكبر أو فيما دونه من الشرك (٥٠) ولهذا يقول شيخ الإسلام ايضاً « فإن المسلمين قد اجمعوا على ماعلموه بالاضطرار من دين رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الصلاة عند القبور منهي عنها وانه لعن من اتخذها مساجد » (٥١) ويقول ايضاً رحمه الله تعالى « فمن اعظم المحدثات واسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها ، فقد تواترت النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه ، وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصريحة وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك وطائفة أطلقت الكراهه والذي ينبغي أن تحمل الكراهه على التحريم احساناً للظن بالعلماء (٥٢). إذا ففتنة عبادة القبور من أشر الفتن التي حلت بالمسلمين وفتنتهم عن دينهم الحق . ويعتبر البناء عليها من اعظم وسائل الشرك التي نهى عنها الشرع، وصرح بتحريمها والنهي عنها العلماء فينبغي الحذر والتحذير منها ومحاربتها على قدر الاستطاعة . وهذه القبور قد اخذت اسماء مختلفة من مشاهد وتزب واضرحة وقباب فينبغي التنبه لذلك . ففي الحديث الصحيح « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » قال صاحب التيسير العزيز الحميد « لعنهم صلى الله عليه وسلم على هذا الفعل بعينه وهو اتخاذ قبور الانبياء مساجد أي : كنائس وبيع ويتعبدون ويسجدون فيها لله ، وإن لم يسموها مساجد فان الاعتبار بالمعنى لا بالاسم ، ومثل ذلك القباب والمشاهد على قبور الانبياء والصالحين فإنها هي المساجد الملعون من بناها على قبورهم ولم يسمها من بناها قبوراً» (٥٣). وهذه القبور التي جلبت على المسلمين الشر العظيم في البعد عن الله بما يحدث عندها من الشرك الاكبر ومادونه (وانظر في ذلك مثلاً كتاب إغاثة اللهفان لإبن القيم) وقد جاءت اقوال العلماء صريحة في تحريمها كما رأينا وجاءت ايضاً صريحة في هدمها وازالتها فمنها قول شيخ الاسلام رحمه الله تعالى « فهذه المساجد المبنية على قبور الانبياء أو الصالحين أو الملوك وغيرهم يتعين ازالتها بهدم وغيره هذا مما لااعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين(٥٤) وقال تلميذه ابن القيم « وكذلك القباب التي على القبور يجب هدمها لانها اسست على معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فبناء اسس على معصيته صلى الله عليه وسلم ومخالفته بناء غير محترم وهو اولى بالهدم من بناء الغاصب فيجب المبادرة والمساعدة على هدم مالعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعله ونهى عنه » . (٥٥) أما الشوكاني فقال في كتابه شرح الصدورفي تحريم رفع القبور « اعلم ان قد اتفق الناس سابقهم ولاحقهم واولهم وآخرهم من لدن الصحابة رضي الله عنهم الى هذا الوقت ان رفع القبور والبناء عليها بدعة من البدع التي ثبت النهي عنها واشتد وعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاعلها » الى ان يقول « وفي هذا اعظم دلالة على ان تسوية كل قبر مشرف بحيث يرتفع زيادة على القدر المشروع واجبة متحتمه . فمن اشراف القبور ان يرفع سمكها أو يجعل

عليها القباب أو المساجد فإن ذلك منهي عنه بلاشك ولاشبهه ولذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم بعث لهدمها امير المؤمنين (علي بن ابي طالب) ثم امير المؤمنين بعث لهدمها ابا الهياج الاسدي في ايام خلافته »(٥٦)

وخلاصة القول أن هذه العمارة من وسائل الشرك بل من اشرها واخطرها ، قد جاءت النصوص الصريحة واقوال العلماء الواضحة في تحريمها والحذر منها والتحذير منها والإنكار عليها وأنه يتعين هدم وإزالة القائم منها .
فهي ليست من سمات المسلمين وليست من بيئتهم العمرانية بل على المسلمين محاربتها اينما وجدت وازالتها من بيئتهم مااستطاعوا لذلك سبيلاً . فلا ينبغي أن تمدح ولاتمجد ولاتدرس ولاتؤلف لها المؤلفات ولايعظم شأنها بالشرح والتفصيل واستلهام الدروس بل الاولى ان تذم ويحذر منها وان لاتعطى اي اهتمام وتبعد من معارف المسلمين ومن مصطلحاتهم . فإذا كانت تلك من شعارات الشرك فإن المسلمين اعز وارفع من ان يستخدموا ويقلدوا شعارات الشرك ولن يصلح اخرهم إلا بما اصلح أولهم وما أصلح أولهم إلا التوحيد . فماذا يستفيد المسلمون من هذه العمارة إلا الفساد والشر والخراب لالعمار ، والعواقب الوخيمة التي لايعلم اثارها إلا الله عز وجل .

٤- نتائج وخلاصة البحث

لعلنا ادركنا في نهاية هذا البحث حكم الاسلام في الابنية على القبور والاضرحة ، وان الاجماع منعقد على تحريمها وانها منكر عظيم وخطر على الدين جسيم ومايحدث من جرائها من شر وفساد في الدنيا فضلاً عن الدين كثير فهل بعد هذا تدخل عمارة أو أبنية القبور هذه ضمن عمارة المسلمين أو عمارة الإسلام هل نطلق على ضديد الاسلام ونقيضه عمارة إسلامية ؟ هل تأخذ هذه العمارة الشركية نصيبها من التمجيد وتأخذ نصيبها من مصطلح « الإسلامية» في العمارة الإسلامية . بالرغم انها علامة واضحة ورمز صريح على الأعمال الشركية ؟ فهذا اجحاف وتناقض وخلط في المفاهيم . فتلك العمارة لايرضاها الله عز وجل بل وسبب لزاول نعمه وحلول نقمه وفيها فاسد الارض ومن عليها وخرابها لاعمارها . عمارة نهت عنها النصوص من الكتاب والسنة واتفق على ذلك أهل العلم . فكيف تدخل ضمن عمارة المسلمين ؟ أو تنسب الى الإسلام كعمارة إسلامية أو تراث إسلامي؟
لذا كان من الواجب الحذر والتحذير منها وإزالة القائم منها ما استطيع الى ذلك سبيلاً . فليست فقط مما حرمه الاسلام ، بل ومما امر بازالته وتقويض دعائمه فليس فيها جمال ولاابداع وليس بعمارة خير ولادليل على الحضارة لاي امة ، بل هي قبح عظيم وفساد في الدين كبير فضررها جسيم ، وتسميتها بالعمارة الإسلامية ووصفها بالاسلامية خطأ كبير يلزم تصحيحه وعمل مايجب في ذلك على مختلف المستويات .

٥ - التوصيات

أولاً : وجوب إهتمام الجامعات بالاصول الشرعية وحمايتها من المساس في علوم العمارة وبالذات تاريخ العمارة الإسلامية وغيرها من العلوم .
ثانياً : اهتمام الكليات المعمارية لموضوع التوحيد وتدريسه وبذل السبل الكفيلة لاستفادة الطلاب والاساتذة من ذلك
ثالثاً : ان تولي الدوريات المعمارية التنبيه على هذا الموضوع موضوع التوحيد .
رابعاً :ان يطرح هذا الموضوع في المؤتمرات والندوات الداخلية والخارجية باهتمام
خامساً : نشر البحوث التي تتناول هذه المواضيع في الكليات المعمارية والشرعية في الداخل والخارج ليقفوا على تنوع وسائل الشرك .
سادساً :الحرص على سؤال أهل العلم فيما يتعلق بهذه الأمور واخذ فتواهم فيما يشكل كموضوع البناء على القبور.
سابعاً : ان يتنبه العاقل بعدم تقديم العقل على النقل .
ثامناً : الحذر من الباطل وأنه قد يأخذ ويتقمص مصطلحات واسماء علمية كتراث أو عمارة إسلامية أو غيرها .
تاسعاً : إن كان ولابد من ذكر مثل هذه الابنية القبورية فيلزم تحذير الناس منها وتوضيح الشركيات فيها .
عاشراً : يقترح انشاء جهة علمية اسلامية تعني بعلوم العمارة في العالم العربي والاسلامي تأخذ على عاتقها مهمه تصحيح المفاهيم الخاطئة التي علقت بتاريخ العمارة الإسلامية وتعكف على تأليف الكتب التي تدحض

الإفتراءات التي نسبت الى الدين الإسلامي الحنيف من مؤرخي العمارة الإسلامية من المستشرقين وبعض المنتسبين الى الإسلام .

شكر : وأخيراً هنا شكر وتقدير للاساتذة الافاضل الذين راجعوا هذا البحث واسدوا بتوجيهاتهم القيمة وهم وكيل كلية العمارة والتخطيط للشئون الاكاديمية الدكتور / سمير الليالي والشيخ الدكتور إبراهيم البريكان أستاذ العقيدة بكلية المعلمين بالدمام والاخ الشيخ خالد الطوق والأخ عامر الدخيل ولكل من ساهم في هذا البحث من المشايخ والاخوة الافاضل فجزاهم الله جميعاً كل خير .

وفي الختام هذا جهد المقل ومن بضاعته متواضعه وعلمه قليل فما كان فيه من صواب فمن فضل الله عز وجل وماكان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان واستغفر الله منه .

وأسأل الله عز وجل ان يجعلنا ممن يطلب الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح و يعمل بهما . ويرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا أجتنابه . والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المراجـــع

١- الريحاوي ، عبد القادر « العمارة في الحضارة الإسلامية » مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز - ١٤١٠هـ .

٢- لمعي ، صالح « التراث المعماري الاسلامي في مصر » دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٤ - ص٢٥ .

٣- Hoag, John "Islamic Architecture" Harry N.A brms Inc .,Publishers New York 1977 P9 .

٤- المصدر السابق ، ص ١٤١ .

٥- المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

٦- المصدر السابق ، ص١٨٤ .

٧- المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

٨- Michell G.(Editor) "Archituecture Of the Islamic World "Thames" and Hudson Ltd, London 1978, P .07 .

٩ - المصدر السابق ، ص٤٣ .

١٠- المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

١١- المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

١٢- المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

١٣- المصدر السابق ، ص ٢٥٣ .

١٤- Norwich, J . "Great Architecture Of The World" Michell Beazley Limited London , 1976 P .131.

١٥- المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

١٦ - Hamilin , T." Archtecture Through the Ages " G.P.Putnams Sons, New York 1953,P193

١٧ - المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

١٨ - المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

١٩- المصدر السابق ، ص ٢٧٠ .

٢٠- الريحاوي ، عبد القادر ، مصدر سابق ص٩ .

٢١- المصدر السابق ، ص ١٥١ ، ١٥٤ .

٢٢- المصدر السابق ، ص ص ١٦١ - ١٦٤ .

٢٣ - المصدر السابق ، ص ص ١٧٢ - ١٨٣ .

٢٤- المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

٢٥- المصدر السابق ، ص ٥٩٢ .

٢٦- شافعي ، فريد « العمارة العربية الاسلامية : ماضيها وحاضرها ومستقبلها» عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الملك سعود ، الرياش ١٩٨٢ ص ١١٨ .

٢٧- المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

٢٨- المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

٢٩ - John Hoqg ، مصدر السابق ، ص ١٦٩ .

٣٠- فريد شافعي مصدر سابق ، ص٢٧ .

٣١- لمعي ، صالح ، مصدر سابق ص ٥ .

٣٢- المصدر السابق ، ص ٨

٣٣- المصدر السابق ، ص ٨

٣٤ - المصدر السابق ، ص ١٠

٣٥- ، عبد القادر الريحاوي ، مصدر السابق ، ص ٣١١ ،٣١ ٣

٣٦ ،٣٧ - المصدر السابق ، ص ٥

٣٨- الاجري « الشريعة » ص ٤٠

٣٩- عبد الله ، سليمان « تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد » مكتبة الرياض الحديثة ص ٩٠

٤٠- ابن كثير ، اسماعيل « تفسير ابن كثير » دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٤ ، ص٢٢٨

٤١- ابن القيم « اضرار المعاصي» دار ابن القيم ، ١٩٨٦ ص ١٨

٤٢- عبد الوهاب ، محمد « كتاب التوحيد» الرئاسة العامة لإدارات البحوث والافتاء ، الرياض ١٩٨٤ ص٢٩

٤٣- عبد الله سليمان ، مصدر سابق ، ص ٩٠

٤٤- عبد الوهاب ، محمد مصدر سابق ، ص٨٦

٤٥ - عبد الله سليمان ، مصدر سابق ، ،ص ٣٠٢

٤٦- المصدر السابق ، ص ٩٧

٤٧ ،٤٨ - ابن القيم « اغاثة اللهفان» من مصايد الشيطان مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ص ٢١٢

٤٩ ، ٥٠ - عبد الله سليمان مصدر سابق ، ،ص ٢٧٨ ، ٢٧٩

٥١، ٥٢ - ابن القيم ، مصدر سابق ، ص ١٨٥

٥٣ - عبد الله ، سليمان ، مصدر سابق ، ص ٢٨

٥٤ -ابن تيمية احمد « اقتضاء الصراط المستقيم دار الحديث ، القاهرة ص ٣٤٠ .

٥٥- ابن القيم ، محمد - مصدر سابق ، ص ٢١٠